مجلة دراسات إنسانية واجتماعية / جامعة وهران02/ المجلد 13 ع 01، 16 /01 / 2024
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

نظرية التعاقب الدوري للحضارات عند جيامبا تيستا فيكو

Giambattista VICO's Cyclical theory of civilizations

لبنة بوزاهر * Lobna BOUZAHAR lobna-bouzahar@univ-eloued.dz	فلسفة عامة	مخبر التنمية الاجتماعية وخدمة المجتمع. جامعة الشهيد حمه لخضر، الوادي/ الجزائر

DOI : 10.46315/1714-013-001-13

الإرسال: 2023/06/23 القبول: 2023/10/22 النشر: 2024/01/16

**

Abstract:

Philosophers of history, have been concerned with exploring the problem of civilization, its foundations, and its decline. One of the most significant contributions to this issue is the cyclical theory of civilizations. This theory is often associated with the name of Giambattista VICO, who is considered one of its foremost proponents .

The research paper highlights on the theory of cyclical succession of civilizations from the perspective of Giambattista VICO. We will examine the major historical stages that civilizations go through and identify the characteristics of each stage. Furthermore, we will attempt to connect this conceptual framework to the contemporary civilizations.

Keywords: Civilization; Cyclical succession; VICO; History.

ملخص:

لقد عني فلاسفة التاريخ بداية من ابن خلدون بالبحث في إشكالية الحضارة، وأسس قيامها وأسباب سقوطها، ومن أهم ما تم التوصل إليه فيما يخص هذه المسألة هو ما يعرف بنظرية التعاقب الدوري للحضارات، ولا تذكر هذه النظرية إلا ويذكر اسم جيامباتيستا فيكو باعتباره من أهم رواد هذه الفكرة، وكون فلسفة التاريخ في الفكر الغربي لم تبدأ فعليا إلا معه.

في هذه الورقة البحثية نسعى لتسليط الضوء على نظرية التعاقب الدوري للحضارات من منظور فيلسوف التاريخ فيكو، والوقوف على أهم الأطوار التاريخية التي تتعاقب عليها الحضارات، ومعرفة الخصائص التي تميز كل مرحلة ومحاولة ربط هذا التصور بالواقع الذي تعيشه الحضارات المعاصرة.

كلمات مفتاحية: الحضارة؛ التعاقب الدوري؛ فيكو؛ التاريخ.

**

مقدمة:

اهتم فلاسفة التاريخ بالبحث في مختلف العوامل المؤثرة في سير التاريخ من دعائم لقيام الدول والحضارات إلى الأسباب الفاعلة في سقوطها، حيث احتلت مشكلة الحضارة مكانة كبيرة في الفكر الفلسفي التاريخي، فحاول جلهم العمل على دراسة حياة الحضارة من النشأة إلى السقوط، محاولين تحديد الشروط المتحكمة في دورة حياة كل حضارة، وهو ما أوصلهم إلى القول بالدورة الحضارية، باعتبار أن الحضارات تتعاقب في مراحل تاريخية ثابتة تبدأ بنشأتها ثم النمو والتطور

* - الباحث المُرسل: lobna-bouzahar@univ-eloued.dz

وتنتهي بسقوطها وانهيار الحكم فيها، وهذه الدورة التاريخية تتحدد بعدد من الأطوار التي تمر بها الحضارات في رحلتها من النشأة إلى السقوط.

ويعتبر المفكر والفيلسوف الإيطالي جيامباتيستا فيكو رائدا في نظرية التعاقب الدوري للحضارات في الفكر الغربي، ومكانته في هذا الفكر تماثل مكانة ابن خلدون في الفكر العربي، نظرا لإسهاماته التي أعطت دفعة قوية بلورت تأسيس علم التاريخ الوضعي ونشأة مبحث فلسفة التاريخ في الفكر الفلسفي الغربي من خلال كتابه: العلم الجديد في الطبيعة المشتركة للأمم الذي عرض من خلاله القانون العام الذي يحكم تطور المجتمعات في أشكالها التاريخية. **فكيف صاغ فيكو نظرية التعاقب الدوري للحضارات؟ وما هي الأطوار التاريخية التي تتعاقب عليها كل حضارة؟ وما هي خصائص كل طور؟**

1. الإطار المفاهيمي للدراسة:

1.1.الحضارة:

المفهوم اللغوي:

يمكن أن يلفظ مصطلح الحضارة إما بفتح الحاء أو كسرها وهو مشتق من الفعل حضر، وهي في معاجم اللغة تحمل دلالة الإقامة في المدن ضد البداوة والتي تعني الإقامة في البدو. حيث نجد ابن منظور في معجمه الشهير **لسان العرب** تناول مفهوم الحضارة بداية من اشتقاقها اللغوي الذي يعود لمادة حضر، ومن خلال ذلك عرض بإسهاب كل ما له علاقة بهذا المفهوم ويمكن أن نلخص ذلك في أن الحضارة عنده تعني: «الحضر خلاف البدو، والحاضر خلاف البادي ... الحاضر هو المقيم في المدن والقرى والبادي المقيم بالبادية... والحضارة الإقامة في الحضر.» (ابن منظور، الصفحات 906-907)

أما في **المعجم الوسيط** نجد أن: «الحضارة الإقامة في الحضر... ضد البداوة وهي مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني والرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر» (أنيس وآخرون، 2004، صفحة 181)، وهنا يضاف إلى مفهومها اللغوي أنها مظهر من مظاهر التقدم الذي يعكس تطور أمة من الأمم في مختلف المجالات الثقافية والعلمية والأدبية التي بدورها تنعس على الحياة الاجتماعية في مدينة ما بعيدا عن البادية.

وبالحديث عن دلالة هذا المصطلح في اللغة الإنجليزية نجد أنه قد تأخر مفهوم الحضارة مقارنة باستخدامه في الفكر العربي، حيث ورد في المعجم الشامل لعبد المنعم الحنفي أن استخدام مصطلح "حضارة" في الفكر الغربي حديث تماما، فكلمة Civilization استخدمت لأول مرة سنة 1704م بمعنى التمدن، «أي التخلق بأخلاق أهل المدن واللبس مثلهم والسلوك كدأبهم والتحدث

بلغتهم»، أما استخدام المصطلح بمعنى الحضارة التي تحمل دلالات التقدم والتطور العلمي والأخلاقي والفني ... الخ فقد كان بعد ذلك التاريخ. (الحنفي، 2000، صفحة 301)

وبالعودة إلى بعض المعاجم الغربية نجد أن الحضارة **Civilization** تشير إلى: «سمة المجتمع المتقدم في مكان وزمان معينين»(Procter & others, 1984, p. 189) ، أي مجموع المظاهر الثقافية والفنية والأخلاقية والعلمية والاقتصادية التي تميز شعبا أو أمة ما كأن نقول الحضارة اليونانية، أو الحضارة المصرية، وقد تكون هذه المظاهر الحضارية التي تشترك فيها بعض الدول والشعوب التي يجمعها مقوم مشترك كالدين أو اللغة كأن نقول: الحضارة الإسلامية أو الحضارة الغربية.

المفهوم الاصطلاحي:

لقد قدم المفكرون وعلماء الاجتماع وفلاسفة التاريخ عدة اجتهادات في تفسيرهم لمعنى الحضارة كل من خلال رؤيته الخاصة فكرية كانت أو دينية أو اجتماعية، لكن جميع المعاني كانت كلها تصب في تصور واحد يعبر عن نمط من الحياة التي تجمع بين الأخلاق وفضائل السلوك وبين التطور الاقتصادي والفني والتقني والحكمة في تسيير الشؤون السياسية، وتظافر العوامل السابقة يدفع بأمة أو شعب أو دولة أو مجموعة متلاحمة من الدول والشعوب إلى الدخول في مسارات الحضارات والانتقال في أطوارها. هذا ما نلمسه من خلال المفهوم الذي قدمه لها فيلسوف التاريخ **ويل ديورانت** الذي يعرفها في مطلع كتابه العظيم **"قصة الحضارة"** بأنها: «نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون.» (ديورانت، صفحة 03)

اعتبر **كميل الحاج** أن علماء الانثروبولوجيا يحددون معيارين للحضارة أحدهما ذاتي يتعلق بالفرد وسلوكه، في بلوغه مرحلة من مراحل التطور الإنساني التي تختفي فيها مظاهر الهمجية والبربرية لديه، ويرتقي من السلوك المتوحش إلى قيم الفضائل والأخلاق فقيل عنه أنه إنسان متحضر، أما المعنى أو المعيار الموضوعي الذي يقاس به تحضر أمة من عدمه هو انتقالها لحالة تميزها مظاهر التقدم فنيا وعلميا وتكنولوجيا، هذه المظاهر تنعكس بدورها على مستوى الحياة الاجتماعية فيها التي يعرفها الأفراد ويتناقلونها جيلا عن جيل. (الحاج، 2000، صفحة 206)

نجد أن كل من تناول البحث في المعاني اللغوية أو الاصطلاحية لمفهوم الحضارة ارتبطت عنده بدلالات معينة، وهي في الغالب تدل على مظهرين أساسيين، فهي عند البعض ترتبط ارتباطا وثيقا بالسكن ومكان العيش وبالتحديد السكن في المدن والقرى بعيدا عن البدو، وهذا المفهوم نجده قديما بعض الشيء كان في بدايات استخدام هذا المصطلح، بينما الدلالة الثانية التي يحملها المصطلح فهي كونه علامة من علامات الرقي ومظهر من مظاهر التطور لأمة أو دولة ما، في كافة

المجالات منها الثقافية والاقتصادية والعلمية والأدبية والأخلاقية والفنية، وهو ما ينعكس بشكل واضح على مستوى الحياة الاجتماعية ومنظومة الأفكار والقيم لأفراد المجتمع وينقلهم من حالة الفوضى والهمجية إلى مرحلة سامية قوامها الأخلاق والقيم الفاضلة، وهذه الدلالة الثانية للمفهوم نجدها أكثر حداثة من سابقتها، وهي دلالة تبناها على وجه الخصوص أصحاب المعاجم الغربية في ضبطهم لمعاني كلمةCivilization باعتبارها مصطلح حديث الظهور والتداول في الفكر الغربي.

الحضارة والثقافة:

يلتقي مفهوم الحضارة والثقافة في تعريفات الكثير من المفكرين واللغويين حتى أن هناك من يطابق بين المفهومين ويستخدم كليهما لذات الغرض ونفس الدلالة. وهو ما نجده في تعريف **إدوارد تايلور** للثقافة والتي يرادف بينها وبين الحضارة فيقول: «الثقافة أو الحضارة في معناها الاثنوجرافي الواسع تعني ذلك الكل المركب الذي يشمل المعارف والعقيدة والفن والأخلاق والقانون وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان» (اسماعيل وخليفة، 2005، صفحة 138)

وفي هذا الصدد نجد **عبد المنعم الحفني** ينبه من التباس المصطلحين، فيبين أنّ كلمة حضارة «أخذت تطلق على مظاهر الحياة المتقدمة والمتطورة في المجتمعات الغنية (الآلات والخبرة في ميدان الإنتاج، الثروة المادية)، أما الثقافة فأصبحت تطلق على مظاهر الحياة الروحية والفكرية في كل مجتمع، متقدما كان أم متخلفا». (الحاج، 2000، صفحة 206)

ومعنى ذلك أن الحضارة تلفظ دلالة على مظاهر الرقي والتقدم في مختلف مناحي الحياة لمجتمع ما، بينما الثقافة لا تحمل مدلولات التطور والرقي، لأنها ليست سمة المجتمعات المتقدمة فقط بل هي من أشكال الحياة حتى في المجتمعات المتخلفة، كونها تعكس مظاهر الخصوصية والتميز عن المجتمعات والثقافات الأخرى من الناحية الفنية والدينية والقيمية وكل ما يتعلق بالعادات والتقاليد والأعراف ومظاهر الحياة المشتركة في مجتمع ما، وليس بالضرورة أن تكون هذه المظاهر في حالة متطورة، وعلى سبيل المثال يمكن أن نقول الثقافة الهندية باعتبار الهند بلدا متشبعا وغنيا بعادات وتقاليد خاصة ومميزة في كافة نواحي الحياة، غير أنه ليس من الصواب أن نقول الحضارة الهندية خاصة في الوقت الراهن وهذا يرجع لغياب مقومات الحضارة فيها، ومن هنا نخلص إلى أن هناك من المجتمعات من عرفت الثقافة غير أنها لم ترق لمستوى الحضارة، وهو الأمر الذي من شأنه أن يرفع الالتباس بين مفهومي الثقافة والحضارة ودلالة كل منهما.

1.2.التعاقب الدوري:

هي نظرية تشير إلى أن المجتمعات البشرية والحضارات الإنسانية تخضع لأنماط ثابتة ودورية من التطور عبر مراحل تاريخها، تبدأ بالنشأة ثم التطور وهو غايتها وصولا إلى السقوط والانحلال،

لتبدأ على أنقاضها دورة تاريخية جديدة تتعاقب في أطوار معينة. حيث «ينطلق واضعوا هذا النموذج من فكرة مفادها أن تاريخ الإنسانية يتطور وفق حلقات متتابعة تبتدئ من نقطة معينة وتنتهي عند أخرى، ويقع بني هاتين النقطتين مراحل محددة، واستلهموا هذا النموذج من مقارنتهم بين تاريخ الدول والحضارات وتاريخ الكائنات العضوية، فكما يولد الإنسان ويشب ويهرم، كذلك الدول تنشأ وتهرم وتزول» (مهورباشة، 2016، صفحة 69)

وتعود جذور هذه الفكرة إلى الحضارات القديمة خاصة منها الهندية، اليونانية، الرومانية والفارسية التي ربطت حياة الإنسان ومستقبل الكون بحركات الكواكب وتقلبات الفلك إضافة لكونها تبنت فكرة العود الأبدي، الذي يفسر أن الكون يمر بدورات طويلة ومتتابعة، وهو يعرضه **مصطفى النشار** في حديثه عن الثقافة الهندية القديمة التي تعتقد أن الدورة التاريخية للعالم تشهد أربعة عصور أن الحالة الأولى للعالم هي حالة العصر الذهبي "عصر الكريتا" وهو عصر قوامه الأخلاق والفضيلة وميزته الكمال، ثم تنتقل المجتمعات إلى مرحلة أخرى وهي "عصر التريتا" الذي يقل فيه الخير وتضعف فيه الفضيلة، وصولا إلى مرحلة من الشر والخطايا التي تضعف المجتمعات وتنخر جسد الإنسانية ويكون ذلك في "عصر الدافاپارا"، وكنتيجة لذلك يصل العالم إلى آخر مراحله وهو "العصر الكالي" الذي تسقط فيه الحضارات وتنهار وينتهي العالم، وعلى أعقاب ذلك تبدأ دورة جديدة وينبعث الكون من جديد. (النشار، صفحة 83)

أما بالنسبة للجذور الفلسفية لهذه النظرية فإن **ابن خلدون** يعتبر واضع فكرة التعاقب الدوري للحضارات، حيث اعتبر أن حركة التاريخ مستمرة، وهذه الحركة تتجسد عنده من خلال حديثه عند الدولة، مشبها إياها بالكائن الحي الذي يبدأ بالضعف ثم ينمو ويقوى ثم يضعف ويشيخ ويموت، وما يسري عليه يسري على الدولة، ومن هنا اعتبر أن الدورة التاريخية للدولة تبدأ من البداوة إلى الحضارة، وتنتقل من الحضارة والترف إلى الهرم والسقوط، وبذلك حدد خمسة أطوار للدولة، تتعاقب فيها ثلاثة أجيال، وفي هذا يقول: «اعلم أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة وحالات متجددة، ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقًا من أحوال ذلك الطور لا يكون مثله في الطور الآخر» (ابن خلدون، 2014، صفحة 543)

يوضح **ابن خلدون** أن الدولة تخضع للتغير والسيرورة ولا تعرف الثبات على حال، وأحوال الدولة المتتابعة والمتجددة تؤسس في الغالب لخمسة أطوار تتعاقب عليها ثلاثة أجيال، تبدأ بطور **الظفر بالبغية** وهو طور النشأة والتأسيس للدولة الجديدة بعد الاستيلاء على المُلك الذي كان بيد دولة سابقة، وبذلك يرسي المِلك الحكم اعتمادا على العصبية التي تكون في أوجها ويتشارك مع أهل عصبيته الحكم ولا يتولاه بمفرده، وبذلك يكون قدوة لرعيته في اكتساب المجد وتحصيل الثروة وحماية أمن الدولة، وفي هذا الطور يعيش الجيل الأول للدولة وهو **جيل البداوة** وميزته الخشونة

والبسالة والافتراس، وبذلك يتغلب ويقيم دعائم الدولة الجديدة ويكرس الاشتراك في المجد، لأن العصبية لا تزال محفوظة فيه. (ابن خلدون، 2014، صفحة 536).

وبعد أن تستقر أحوال الدولة، يرى الملك في أهل العصبية منافسين له في حكمه فينفرد به لنفسه دونهم، ويسعى إلى قمعهم وإبعادهم عن السلطة بعد أن كان في الطور الأول ساعيا لكسب ودهم، مستعينا في ذلك بالموالي والجيش للحفاظ على ملكه، وتثبيت أركان حكمه، ويكون ذلك في **طور الاستبداد**، ويليه **طور الفراغ والدعة** وفيه يزداد الانفاق على مظاهر المدينة والترف والرخاء ليبلغ ذروته، وتتقدم الصناعات والفنون والعلوم، فيبث الحاكم المعروف على أهله، مع زيادة الأرزاق لصناعه وحاشيته وجنوده، «حتى يظهر أثر ذلك عليهم في ملابسهم وزيهم وشكتهم وشاراتهم يوم الزينة» (ابن خلدون، 2014، صفحة 544). وسكان الدولة في هذين الطورين هم **جيل الحضارة** الذي ينتقل بالدولة من حال البداوة والخشونة وصعوبة العيش وشظفه، إلى حال التّرف والحضارة، فتضعف فيه العصبية قليلا ورغم تبدل أحوالهم عن الجيل الأول إلا أنهم يأملون العودة إلى ما أخذوه عنهم وما أدركوه من سلفهم، ولا يكون لهم ذلك لأن انغماسهم في الترف وابتعادهم عن الفضيلة يحول دون ذلك. (ابن خلدون، 2014، صفحة 537)

ثم **طور المسالمة والقنوع**، ويعرف عن المَلك في هذا الطور أنه يكون مسالما، فيبتعد عن قتال الدول المعادية له، قانعا بما بلغته أحوال الدولة من ترف وحضارة، راضيا بما ورثه عن آبائه وأسلافه من مال ومجد، «فيقتفي طرقهم بأحسن مناهج الاقتداء ويرى أن في الخروج عن تقليدهم فساد أمره وأنهم أبصر بما بنوا من مجده» (ابن خلدون، 2014، صفحة 544) وآخر أطوار الدولة هو طور **الاسراف والتبذير**، ويكون الملك فيه مبذرا متلفا لما جمعه أسلافه في سبيل الشهوات، ومهدما لما بنوه من مجد، فينصرف عن خدمة الدولة إلى تحقيق غاياته ومقاصده وتلبية شهواته، فتسوء علاقته بالرعية ويتخاذل كبار قومه وحاشيته عن نصرته، وإذا حصل هذا في الدولة فإن الملك يجد نفسه بحاجة إلى من ينصره ويدفع عنه ديون الدولة ما يحتم عليه الاستعانة بالأجانب، فتصاب الدولة بالوهن والهرم، ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا شفاء منه، وتبدأ بالانحلال ثم الفناء والانقراض (ابن خلدون، 2014، صفحة 544)، ويقابل هذين الطورين **جيل التدهور والسقوط** الذي ينسى حياة البداوة والخشونة، «ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر، ويبلغ الّترف فيهم غايته بما تفّنقوه من النعيم وغضارة العيش» (ابن خلدون، 2014، صفحة 537).

2. التعاقب الدوري عند فيكو:

2.1.ترجمة فيكو:

لقد كان من المهم بالنسبة لنا أن نضع هذه الترجمة المختصرة لفيلسوفنا خاصة وأن الكثيرين يجهلون هذا المفكر الكبير، وقد أشار هو لذلك في سيرته الذاتية كونه لم يلق طوال حياته التقدير الذي استحقه نظير أعماله وإنجازاته الفكرية القيمة، حتى أنه وبعد وفاته بقي انتشار أفكاره متواضعا، حتى أن بعضا من كتبه لم تترجم إلى يومنا هذا للغة العربية.

(جيوفاني باتيستا) أو جيامباتيستا فيكو Giambattista VICO، المؤرخ والفيلسوف الإيطالي، وُلد في 23 يونيو 1668 في نابولي، إيطاليا، لعائلة ميسورة الحال، وكان السادس من ثمانية أبناء. نشأ في بيئة ثقافية ففي سن مبكرة درس اللغات القديمة، وخاصة اللاتينية في مدرسة الآباء اليسوعيين، كما تلقى تعليمًا في الآداب والفلسفة والمنطق وعلم اللاهوت والقانون الروماني الذي أصبح مجال اهتمامه فيما بعد. وقد كان لوالده مكتبة غنية وكان فيكو يستمتع بالتردد على كتبها. (أبو السعود، 1997، صفحة 18). في وقت لاحق، عمل في مجال القانون والمرافعات القضائية، لكنه سرعان ما تفرغ للدراسة عندما انتقل للعيش في قلعة تشيلنتو Cilento في فاتولا، حيث تولى تعليم أحد أبناء عائلة روكا Rocca، وهناك ركز فيكو اهتمامه على دراسة القانون الروماني، بدءًا من أعمال **شيشرون** (VICO, 1944, pp. 117-119) ليعود بعدها إلى مسقط رأسه نابولي سنة 1695، وبعدها بسنوات قليلة تولى منصب كرسي البلاغة بجامعة نابولي، وكان عمله يقدم باللغة اللاتينية كونها لغة العلم في تلك الحقبة الزمنية واستمر في منصبه هذا إلى غاية 1641، وبعدها تقدم مرتين لمسابقة للظفر بمنصب كرسي القانون المدني لكنه لم يوفق في المرتين، وفي سنة 1710 التحق بأكاديمية Assorditi، وبعدها التحق بأكاديمية Arcadia سنة 1730، وفي سنة 1735 انظم لأكاديمية Oziosi، وفي ذات السنة عين مؤرخا ملكيا للملك شارل بوربون، ومع تقدمه في السن وضعف صحته توقف عن التدريس وإلقاء المحاضرات، وطلب من الملك أن يخلفه في الأستاذية ابنه الأصغر جينارو Gennaro وهو ما حدث بالفعل، أما فيكو فقد لزم بيته بهدوء ليتوفى في يناير 1744. (أبو السعود، 1997، الصفحات 19-25).

أما بالنسبة لإنجازاته الفكرية فقد كتب بعض الكتب التي عرض من خلالها إما سيرا ذاتية، أو أرخ من خلالها لمراحل تاريخية وكتب أخرى عرض من خلالها رؤيته الفكرية، بعضها نشر وبعضها لم ينشر وهي: كتاب الحكمة الإيطالية القديمة سنة 1710، وكتاب **تاريخ مارشا كار افا** الذي نشر سنة 1716، كتاب **القانون العالمي** في ثلاثة أجزاء في ثلاثة سنوات على التوالي (1720-1722)، كتابه العظيم **العلم الجديد** الذي صدرت طبعته الأولى سنة 1725، وحاز في نفسه أن كتابه هذا لم يلق أي اهتمام ولم يجد صدى في مدينته، بالإضافة إلى الكتاب الذي يضم سيرته الذاتية في

جزئين بطلب من بورشيا وهو أحد نبلاء البندقية. إضافة إلى مجموعة من الخطب والمحاضرات: مقال تأريخ **مؤامرة ماكيا** لم ينشر وخطبة افتتاحية نشرت في كتاب **مناهج الدراسة في عصرنا** الذي نشر سنة 1709، وكذا بعض الرسائل عن الشعر ورسائل عن ديكارت، ورسائل دفاع عن العلم الجديد. (أبو السعود، 1997، الصفحات 19-23).

2.2.التفسير التاريخي للدورة الحضارية عند فيكو:

لقد كان عصر التنوير في أوروبا في العصر الحديث بداية لرفع شعارات الحرية والعقل والتقدم والتطور، وبالنظر إلى الأصول التاريخية لفكرة التطور نجد فيكو من أول المؤسسين لهذا المفهوم لكن ليس باعتباره شعارا من شعارات التنوير بل باعتباره قانونا تخضع له جميع الأمم والحضارات، وليس على نحو ما فسر به المؤرخون الأوائل التاريخ، كونه يميز حقبة زمنية معينة ويسير بوتيرة واحدة، وعلى خلاف ذلك يجعله فيكو أشمل وأعم فهو يقر باختلاف الأمم والحضارات ما يجعل قانون التطور يشمل جميع الأمم على اختلافها غير أن كل مرحلة من مراحل هذا التطور لها خصائصها ومميزاتها. (كلواز، 2021، صفحة 134)، ولقد ارتبطت نظرية التعاقب الدوري عنده بالحضارات باعتبارها وحدة لتفسير حركة التاريخ في الوقت الذي نجد ابن خلدون قد فسر حركة التاريخ وتعاقب الحضارات من خلال دراسته للدولة.

كانت بداية نظريته في تطور الأمم والحضارات في خطبته الافتتاحية التي ألقاها سنة 1708 ونشرت في كتاب بعنوان **مناهج الدراسة في عصرنا** سنة 1709، لكن تفصيل هذه الفكرة كان بإسهاب في كتابه الشهير **العلم الجديد** الذي نشرت طبعته الأولى سنة 1725، وربط هذه النظرية بالتربية غير أنه لم يجعلها مقتصرة على ذلك فقط بل جعلها قانونا عاما للتطور البشري والحضاري، حيث اعتبر أن هناك قانونا ثابتا يتحكم في التطور النفسي للأفراد من خلال المراحل المختلفة التي يمر بها الإنسان في حياته، وهذا القانون الذي يحكم حياة الفرد يلخص حياة كل حضارة تنتقل بموجب هذا القانون من البدائية إلى التمدن. (أبو السعود، 1997، صفحة 94)، ففي مقابل التطور النفسي الذي يعرفه الإنسان في مراحل نموه من الطفولة ثم الشباب والكهولة وصولا إلى الشيخوخة، فإن الحضارات أيضا تخضع لقانون التطور بداية من النشأة ثم النمو والتطور ثم تبدأ في التراجع والنكوص وصولا إلى السقوط، وهذه المراحل التي تتعاقب عليها الحضارة تتميز بصفات ثابتة وسمات مميزة تتعاقب عليها جميع الحضارات ولعل ما تختلف فيه الدورة التاريخية لحضارة ما عن الدورة التاريخية لحضارة أخرى هو الأطوار التي تمر عليها فالمرحلة البربرية لحضارة ما ليست هي ذاتها بالنسبة لحضارة أخرى، ما يعني أن التاريخ لا يتكرر بنفس الطريقة بل هو تاريخ متجدد يسير بوتيرة تصاعدية وليست دائرية.

حيث يجعل فيكو من نظرية التعاقب الدوري أساسا يستند إليه في تفسيره للحضارات، فمن خلال اطلاعه على تاريخ الحضارات القديمة كاليونانية والرومانية ودراسته للقانون الروماني، إضافة إلى اطلاعه على ثقافات الحضارات الشرقية القديمة، توصل إلى ضبط قانون ثابت يتحكم في حياة الشعوب والأمم ويقف وراء تطورها، فالدول في تاريخها ترتقي من الهمجية والحياة الطبيعية التي لا تعرف القانون إلى الأديان، ثم إلى الحياة التي يحكمها القانون وهي المجتمع السياسي الذي يعبر عن حياة اجتماعية منظمة يحكمها الطابع الإنساني، واعتبر فيكو أن كل الشعوب تمر بنفس الدورة الحضارية التي تبدأ بنشأتها ثم تطورها ونضجها، لتنتهي بتدهورها وسقوطها (أبو السعود، 1997، صفحة 95)، ما يعني أن مجتمعات البشرية تتبع نمطًا دوريًا من التطور والتراجع.

وهذه الدورة التاريخية للأمم تتعاقب في مراحل ثلاث استقاها فيكو من خلال دراسته لحضارات الشعوب القديمة واستقرائه للتاريخ المصري، حتى أنه أشار إلى أن المصريين يعتقدون بوجود ثلاثة أزمنة للعالم وهي مسلمة من مسلمات العقل البشري وحقيقة تاريخية يجب الإيمان بها (ويدجري، 1972، صفحة 194)، فوفقًا لفيكو، تسلك الحضارات دورة تتألف من ثلاثة عصور: بدايتها مع العصر الإلهي، ويليه العصر البطولي، ونهاية هذه الدورة مع العصر البشري. وكل مرحلة

2.3.أطوار الحضارة عند فيكو:

- <u>عصر الآلهة:</u>

في فلسفة التاريخ لفيكو، يشير العصر الإلهي إلى المرحلة الأولى من الدورة الحضارية التي تتميز بالتأليه للكون والطبيعة، وفي هذا العصر يعزى كل شيء إلى الآلهة والإرادة الإلهية التي تسير كل ظواهر الكون، حيث يعتبر فيكو أن الدين هو أول مبادئ الطبيعة البشرية والرادع لوحشية الأفراد في هذه المرحلة (فيكو، 1444 هـ، صفحة 563)، وينشأ عن حاجة الناس لتفسير الظواهر الطبيعة التي تعتبر مخيفة بالنسبة لهم، فتتكون في أذهانهم تصورات عن الآلهة التي تسكن هذه الظواهر وتسيرها كيفما تشاء بحسب رضاها أو سخطها عن الإنسان، ويعتبر صنع الآلهة في مخيلات أفراد هذا العصر كأمان لخوفهم وكتهذيب لسلوكهم، ويعيدنا هذا التصور الذي وضعه فيكو للعصر الإلهي إلى بدايات التفكير الأسطوري عند اليونان الذي جاء كإجابة عن السؤال: ماذا فوق الأشياء؟ فنتج عن ذلك نمط من التفكير القائم على الخيال والأسطورة الذي يروي قصص الأبطال الخارقين والآلهة على جبل الأولمب واعتبار ظواهر الطبيعة المخيفة تسيرها الإرادة الإلهية.

أما عن طباع الأفراد في هذا العصر فهي فضة خشنة ممزوجة بالدين والتقوى، وتفكيرهم بعيد تماما عن العقل والمنطق بل يغلب عليه الطابع الأسطوري وسيادة الجهل والخرافة، وانتشار

الأوهام وقلة الوعي والثقافة وممارسة السحر، وهذا نتيجة الخوف من ظواهر الطبيعة والاعتقاد بوجود قوى خارقة وأرواح تحركها وتتحكم في مصائر الأفراد وفي حركة الكون، وهذا الاعتقاد يقودهم إلى البحث عن تفسيرات تبعث فيهم الأمن مقابل خوفهم من كل ما هو غامض ومجهول بالنسبة لهم، فينشأ في أذهانهم إيمان بوجود الآلهة التي تحرك هذه الأشياء بحسب غضبها أو رضاها عن الإنسان. وبالتالي فإن الخوف وضعف القدرة على التفكير المنطقي هو الدافع لنشأة الآلهة في هذا العصر. (أبو السعود، 1997، الصفحات 95-96)، وعليه فإن هذه المرحلة دينية روحية، إلا أن العقائد تتميز باللامنطق والغموض ونسبة الألوهية لكائنات أخرى، باعتبار الأسطورة هي المحك الوحيد للتفكير وتفسير الظواهر، ونتيجة خوفهم من الآلهة التي صنعتها مخيلاتهم الخادعة فإن طباعهم تتحول من الوحشية والقسوة إلى الورع والتقوى.

أما عن نظام الحكم في هذه المرحلة، فإن هناك من المفكرين من اعتبر أن هذا العصر هو الأصل في المجتمع، وهو ما عبر عنه المفكرون بالمجتمع الطبيعي، الذي تغيب فيه كل أنواع التشريعات والتنظيمات المدنية، وغياب التشريعات الوضعية يتيح المجال لرجال الدين والكهنة للاستبداد بالحكم تحت مسمى الحق الإلهي، فيمارسون السلطة بموجب تفويض من الآلهة، وهو بذلك حكم ثيوقراطي استبدادي يشهد سيطرة الكهنة على المجتمع.

واللغة السائدة في هذا العصر هي اللغة الهيروغليفية أو السرية المقدسة، كما عند المصريين القدماء، ونتيجة نشاط الخيال عرفت هذه المرحلة نشأة الشعر الديني الذي أضفى الحياة على الأشياء الجامدة، وجعل من الشعراء واللاهوتيين هم حكماء هذا العصر. (أبو السعود، 1997، صفحة 95، 97).

- <u>عصر الأبطال:</u>

تشهد هذه الفترة نمو الوعي الإنساني مقارنة بالمرحلة الأولى، فنتيجة لاستبداد الكهنة بالحكم، إضافة لانتشار الأساطير والخرافات والسحر والأوهام، والخوف من الطبيعة، ينشأ اتحاد بين بعض المجتمعات نتيجة وعيها بأوضاعها، وطمعا في التعاون الذي غايته دفع المخاطر وهو ما أشار إليه ابن خلدون سابقا في حديثه عن دوافع العمران البشري.

وبموجب هذا الاتحاد تدخل الحضارات المرحلة الثانية من دورتها التاريخية وهي العصر البطولي، الذي ينتقل فيه الحكم إلى أيدي الأبطال ورجال الحرب بعد انتزاع السلطة من يد رجال الدين والكهنة، وهو ما يغير في أنظمة الحكم من شكلها الثيوقراطي الاستبدادي إلى نظام أرستقراطي مستبد يقوم على أساس الفصل بين سلطة السيد وبين طاعة العبد، وبالتالي يسخر السلطة لخدمة الطبقة الغنية في الدولة على حساب الطبقة الفقيرة المستغلة، الأمر الذي يؤدي إلى خلق الصراع بين الطبقة الحاكمة المستبدة، والطبقة المحكومة الخاضعة للاستبداد

والاستغلال (أبو السعود، 1997، صفحة 96). ولعل هذا العصر هو نتيجة حتمية تفرضها حياة الاستبداد والخوف التي عرفها الأفراد في عصر الآلهة، فيلجؤون إلى وضع حكومة تضمن لهم أمنهم وتشرع لهم القوانين التي من شأنهم أن تضمن لهم جزءا من حقوقهم.

وبالتالي فإن طباع البشر في هذه المرحلة تميل إلى إعلاء سيادة القوة وتمجيد البطولة والشجاعة والميل إلى الحروب، إضافة إلى تطور المذاهب الفلسفية والمدراس الأدبية والفنية التي تمجد الأبطال، حيث يعتقد الناس أن هؤلاء الأبطال هم أسمى البشر وبذلك يصبح الأبطال هم حكماء هذا العصر بعد أن كانت الحكمة في العصر الإلهي تنسب للشعراء اللاهوتيين.

- عصر الإنسان:

وهو الطور الأخير من أطوار الحضارة، حيث يتميز بزيادة الوعي بين الأفراد، وإقرارهم لمبدأ المساواة في الحقوق والواجبات كأساس للعدالة وإلغاء الفوارق الاجتماعية، فينال الجميع على حقوقهم الكاملة بموجب قانون الطبيعة، وهنا تسقط السلطة الفردية الاستبدادية ويحل محلها النظام الديمقراطي، الذي يقوم على أساس الاشتراك في الحكم والتداول السلمي على السلطة، كما يتيح للأفراد حق اختيار ممثليهم، والمشاركة في صنع القرارات السياسية. (أبو السعود، 1997، صفحة 97)

أما عن طباع البشر فيتميز جيل هذا العصر بالوعي والعقلانية والشعور بالمساواة في الحقوق والواجبات، وتكون المجتمعات قادرة على إدراك القوانين الكونية وتفهم معاني الحق والعدالة، وبذلك يشير هذا العصر إلى أعلى مراحل التطور الحضاري بسيادة الديمقراطية والحرية والمساواة وغياب الطبقية، فضلا عن تطور أنماط التفكير وانتهاء عصر الخرافة والأسطورة مقابل انتشار العقلانية والمنطق في التفكير والتعامل وسن القوانين وتسيير شؤون الدولة، ما يؤدي لازدهار الحضارة روحيا وفكريا وثقافيا، فضلا عن التميز الفني والأدبي نتيجة انتشار اللغة الشعبية التي تكون في الغالب نثرية.

غير أن هذا العصر وإن كان يمثل ذروة التقدم الحضاري، إلا أنه ينذر بانهيار الحضارة، لأن المساواة بين الأفراد في الحقوق وإقرار نظام الديمقراطية، يجعلهم يتمادون في مطالبتهم بحقوقهم إلى أبعد الحدود، فينشأ التنافس بين طبقات المجتمع، وهو ما يضعف الروابط الاجتماعية التي كانت قوية في المرحلتين السابقتين، وإذا ضعفت هذه الروابط فإن الحياة في الدولة تعمها الفوضى والمشاكل، والصراع والفتن والاعتداء، والميل إلى السطحية والمادية والانحراف عن القيم الأخلاقية العليا، وهو ما يؤدي إلى الانحلال الداخلي والنكوص الحضاري والتراجع الإبداعي الذي يضعف الحضارة ويمهد الطريق لغزو خارجي يقضي عليها بالكامل. (طحطح، 2009، صفحة 92)

إن نهاية الدورة التاريخية لحضارة ما، هي بداية دورة جديدة لحضارة أخرى على أعقاب سابقتها تمر بنفس المراحل التاريخية في أطوارها الثلاث (الإلهية، البطولية، الإنسانية)، غير أن هذه الدورة تكون أرقى من سابقتها، فالعصر الإلهي في الحضارة الجديدة أكثر تقدما من العصر الإلهي للحضارة السابقة، وهكذا فإن الحضارات الإنسانية تمر في تاريخها بحلقات حضارية متصلة وفق حركية لولبية للحضارة في تجدد دائم وتطور للإمام. فقانون التقدم والنكوص يفسر عودة الجماعات البشرية إلى إشكالها الأولى بصورة أكثر تطورا تعبر عن الحركة التصاعدية للتاريخ، ودحض الفكر التطوري الخطي الذي يعتقد أن الحضارات تتطور بشكل ثابت ومستمر.

3. مناقشة وتعقيب:

ليس من الضروري أن تتبع جميع الحضارات نفس الدورة التاريخية من ميلاد ونضج وانحلال، فالعوامل المؤثرة في تطور الحضارات متنوعة ومعقدة، وعلى الرغم من وجود بعض الأنماط المشتركة في تطور الشعوب، إلا أن الاختلافات الثقافية والفكرية والسياسية بين الأمم والحضارات تلعب دورًا حاسمًا في تحديد مسارها التاريخي. حيث يؤكد الواقع اختلاف المنظومات الفكرية والثقافية والتاريخية لكل مجتمع وحضارة. فكل واحدة تمر بتجاربها الفريدة وتتبنى مناهج وأساليب تحكمها وتشكل مسارها التاريخي. لذا، لا يمكن القول بأن جميع الحضارات ستواجه نفس المصير أو تعبر بنفس المراحل التاريخية.

يعتبر توجه الحضارة ومستقبلها مرتبطًا بمدى فاعلية الأفراد والمجتمعات في تجاوز التحديات والمآزق التي تواجهها. كما يتعلق الأمر بالتفكير الإبداعي والحكمة السياسية والنشاط الاجتماعي والاقتصادي الذي يتبناه الناس نتيجة وعي معين وثقافة محددة. بالتالي، يتوقف مسار الحضارة على قدرة المجتمع على التعلم والتطور وتبني الأفكار الجديدة التي من شأنها أن تعمل على تجاوز العقبات وبالتالي دحض الحتمية التاريخية للحضارات.

بشكل عام، يجب أن نفهم أن التاريخ وتطور الحضارات هو عملية معقدة ومتنوعة، ولا يمكن تعميم تجارب معينة على جميع الحضارات. وبالتالي علينا أن نكون حذرين في استنتاجاتنا وندرس كل حضارة بمفردها من خلال فهم سياقها التاريخي والاجتماعي للحصول على رؤية شاملة ودقيقة.

إن هذه النظرية تشكل تحديا وإلغاء لقدرة الإنسان على التطور الذي من شأنه أن يخلص الحضارات والدول من المشاكل التي من شأنها أن تتسبب في نهايتها، فبحسب هذه النظرية مهما بلغت دولة ما أو حضارة ما من مراتب الرقي والتطور فإن مآلها الزوال والانحلال لتحل محلها حضارة أخرى وتسلك نفس الطريق للتطور ثم السقوط، ألا يجعل هذا من جهود الإنسانية في مجابهة الأزمات مجرد هباء؟ أليس في هذا نفي لدور العلم والتقنية في إيجاد حلول تدفع بالحضارات إلى مراحل أسمى من الرقي بدل السقوط والانحدار؟

4. خاتمة عامة:

لقد قدم فيكو رؤيته الخاصة حول التعاقب التاريخي للحضارات في أطوار معينة، وهي وإن كانت نظرية تعبر عن تصوره الخاص إلا أنها ليست منقطعة الصلة عما قدمه **ابن خلدون** قبله أو من تبنى هذه النظرية بعده أمثال **شبنجلر وتوينبي**، وكلها تصل إلى نتيجة حتمية هي أن الحضارات تمر بنفس الدورة التاريخية من نشأة وتطور وانحلال لتبدأ على أعقابها دورة جديدة وتتبع نفس المراحل الحضارية، غير أن ما يجعل تصور فيكو لهذه الدورة مغايرا هو أن حركة التاريخ بالنسبة له ليست دائرية، تبدأ فيها حضارات جديدة بداية مثل سابقتها، بل يعتبر حركة التاريخ تصاعدية لولبية، فنهاية الدورة الأولى هي بداية دورة جديدة أكثر رقيا في طورها الأول من الطور الأول للحضارة السابقة، وهو تصور يؤكد أن الحضارات لا تستمر في التقدم والتطور الدائم خلال تاريخها، كما أنها لا تلبث على حال واحد، بل تتخبط في نهاية المطاف في دوامة من التدهور والانحدار الذي يرجع فيكو أسبابه إلى فقدان المجتمع للفضيلة والأخلاق وسقوطه في الفساد والرذيلة، وهنا يلتقي تصور فيكو مع تصور **ابن خلدون** قبله، في اعتبار أن الأخلاق أساس ودعامة لقيام الحضارات وغيابها في حضارة ما، وحلول الفساد والترف والظلم هو أذان بخراب العمران وسقوط الحضارة.

**

5. المصادروالمراجع:

المصادر:

1. ابن خلدون، عبد الرحمان. (2014). المقدمة، ط 7. القاهرة: دار نهضة مصر.
2. ديورانت، ويل. (بلا تاريخ). قصة الحضارة، الجزء الأول (المجلد 1). بيروت: دار الجبل للنشر والتوزيع.
3. فيكو، جيامباتيستا. (1444 ه). العلم الجديد في الطبيعة المشتركة لكل الأمم، ط 1. تر: أحمد الصمعي. الرياض: دار أدب للنشر والتوزيع.
4. VICO, G. (1944). Autobiography. Trans: M. H. FISCH, & T. G. BERGIN. New York: Great Seal Books.

المراجع:

1. أبو السعود، عطيات. (1997). فلسفة التاريخ عند فيكو. الاسكندرية: منشأة المعارف.
2. إسماعيل، فضل الله وخليفة، عبد الرحمان. (2005). الإيديولوجيا وفلسفة الحضارة، ط 2. الاسكندرية: مكتبة بستان المعرفة.
3. ثابت، عادل فتحي. (1996). شرعية السلطة في الاسلام. الاسكندرية، مصر: دار الجامعة الجديدة للنشر.
4. الحاج، كميل. (2000). الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، ط1. لبنان: مكتبة لبنان ناشرون.

5. طحطح، خاليد فؤاد. (2009). في فلسفة التاريخ، ط 1. الجزائر: منشورات الاختلاف، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.
6. مهورياشة، عبد الحليم. (2016). فلسفة التاريخ مدخل إلى النماذج التفسيرية للتاريخ الإنساني، ط1. بيروت، لبنان: مركز نماء للبحوث والدراسات.
7. النشار، مصطفى. (بلا تاريخ). من التاريخ إلى فلسفة التاريخ قراءة في الفكر التاريخي عند اليونان. القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.
8. ويديجري، البان ج. (1972). المذاهب الكبرى في التاريخ من كونفشيوس إلى توينبي. تر: ذوقان قرقوط، بيروت، لبنان: دار القلم.

المعاجم والموسوعات:

1. ابن منظور. (بلا تاريخ). لسان العرب. القاهرة: دار المعارف.
2. أنيس، ابراهيم وآخرون. (2004). المعجم الوسيط، ط 4. مصر: مكتبة الشروق الدولية.
3. الحنفي، عبد المنعم. (2000). المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ط 3. القاهرة: مكتبة مدبولي.
4. Procter, Paul. & others. (1984). Longman dictionary of contemporary English. Beirut: Librairie du Liban.

الأطروحات:

1. كلواز، زوليخة. (2021). النظرية التاريخية والمنهج عند فيكو دراسة تحليلية نقدية (أطروحة دكتوراه). كلية العلوم الاجتماعية، وهران: جامعة وهران 2.